مجلة "سلوك" | ISSN : 2353-0359 / E-ISSN : 2600-6367 | المجلد 08 / العدد:02 (2021)، ص 72- 84

نقد المجتمع الرأسمالي المعاصر بين ماركس وإريك فروم

A critique of contemporary capitalist society between Marx and Erich fromm

هشام مصباح*

جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة2 - الجزائر ، **hicham.philo21@gmail.com**

تاريخ الاستلام: 2021/04/28 تاريخ القبول: 2021/12/18 تاريخ النشر: 2021/12/30

الملخص:

يعد اريك فروم من بين الفلاسفة الكبار الدين تركوا بصمتهم الواضحة في تاريخ الفكر الغربي والإنساني بوجه عام، نتيجة الأسئلة الحاسمة والمصيرية التي اهتم بها هذا المفكر الألماني الذي جمع في مشروعه الضخم بين البعد الفلسفي العميق في تحليل مختلف الافكار السائدة في الفترة المعاصرة، وبين البعد السيكولوجي المتغلغل في أعماق الذات الإنسانية وما تكتنزه من أسرارٍ، إضافة إلى الأبعاد الأخرى التي نجدها حاضرة دائما في تحليلاته الأصيلة، ومن ثمة يمكن القول أن ما قدمه إريك فروم يحتاج إلى إعادة قراءته من جديد في ظل التحديات الجديدة التي يعرفها الإنسان اليوم في المرحلة الراهنة.

الكلمات المفتاحية: نقد المجتمع المعاصر؛ ماركس؛ إريك فروم؛ البعد الفلسفي؛ البعد السيكولوجي.

Abstract:

Erich Fromm is among the great philosophers of religion who left their clear mark in the history of Western and human thought in general, as a result of the crucial and fateful questions that this German thinker was interested in, who combined in his huge project between the deep philosophical dimension in the analysis of various prevailing ideas in the contemporary period, and the psychological dimension Penetrating into the depths of the human self and the secrets it holds, in addition to other dimensions that we find always present in his original analyzes, and therefore it can be said that what Eric Fromm presented needs to be re-read in light of the new challenges that man knows today in the current stage.

Keywords: criticism of contemporary society; Marx; Erich Fromm; philosophical dimension; psychological dimension.

*المؤلف المرسل: هشام مصباح ؛ الايميل: hicham.philo21@gmail.com

1. المقدمة:

لقد حاول فروم تقديم صورة جديدة تربط بين مجال البحث الاجتماعي والدراسات النفسية داخل المجتمع لأن التحولات الاجتماعية المختلفة للفرد ماهي في النهاية إلا مجرد انعكاس للحالات النفسية التي يعيشها الإنسان، هذه النقطة أشار إليها في مؤلفاته التي نشرتْ بين سنة 1929 و1932 حيث يقول: " *إن تطبيق التحليل النفسي في السوسيولوجيا لابد أن يحترس من الوقوع في خطأ تقديم أجوبة في الأماكن التي تكون فيها الوقائع الاقتصادية والتقنية والسياسية مؤهلة لتقديم أجوبة كافية للإشكالات السوسيولوجية، من جهة أخرى لابد للمحلل النفسي أن ينبه إلى أن المجتمع كموضوع للسوسيولوجيا يتكون في الحقيقة من أناس منفردين، وبأن سلوك وفكر وشعور هؤلاء الناس، وليس المجتمع المجرد هو موضوع البحث السوسيولوجي*" (اريك فروم، 2016، ص 16) أي أن التحليل النفسي لا ينفك عن دراسة وقائع المجتمع الذي لا يفهم إلا بفهم علاقات الأفراد في ما بينهم من جهة، وبين تحليل الوقائع النفسية وما ينجر عنها من تحولات كبرى في جميع مجالات الحياة الإنسانية.

فلا يمكن تصور الوصول إلى أجوبة مقنعة إلا بفهم الدور الكبير الذي يلعبه الجانب النفسي في ذلك، وهو ما جعله في النهاية يقرُّ ويعترف في أكثر من موضع على الوشائج القوية التي تربط بينهما. متخذاً طريقا جديدا في فهم المجتمع، التحولات الاجتماعية وفهم الفرد كفرد أيضا، فما يحرك الناس ليس فقط محددات اقتصادية واجتماعية بل توجد محددات سيكولوجية أيضا، ومن ثمة العمق الجديد الذي يضفيه فروم على فهم المجتمع والفرد الإنساني وطبيعة العلاقة بينهما.

لقد كانت مدرسة فرنكفورت تتألف من مجموعة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والناقدين الثقافيين الدين عملوا خلال الفترة السابقة واللاحقة للحرب العالمية الثانية لصالح معهد البحث الاجتماعي الممول تمويلا خاصا ومقره فرنكفورت، عمل هؤلاء المفكرون الدين نشروا ثمرة أفكارهم في دورية البحث الاجتماعي، متأثرين بالفلسفة الهيجلية من جهة وفلسفة ماركس من جهة أخرى، مع وجود فئة معارضة لهذا المنهج وهي فئة قليلة ممثلة في

الكانطية الجديدة، والمنهج الأنجلو نمساوي الممثل في التجربة المنطقية(جيمس جوردون فنيلسون،2015، ص،21).

لهذا لم يكن فروم مجرد محلل نفسي بل جمع بين التحليل النفسي الفرويدي من جهة وبين التحليل الاجتماعي من جهة أخرى، أي الدمج بين ما هو فردي وما هو جمعي تحت مسمى جديد أطلق عليه بالتحليل النفسي السوسيوسيكولوجي، ومن ثمة تحديث العلاقة التي تجمعه بمدرسة فرنكفورت بالتيار الماركسي على وجه الخصوص حيث انضم فروم إلى مدرسة فرنكفورت عام 1930 وإلى غاية 1939 حيث تقلد منصب مدير القسم الاجتماعي النفسي انطلاقا من السؤال المركزي الذي كان يشغل باله في هذه الفترة الزمنية بالذات، لكنه عُزِلَ بعد ذلك وتقلد زميله "**تيودور أدورنو**" رئاسة المعهد خصوصا بعد تدهور الجانب المادي له عقب الحرب العالمية الثانية، وفي هذه المرحلة المهمة في فكر اريك فروم يبدأ اطلاعه المباشر على الفكر الماركسي وما تضمنه من انجازات في فهم النظرية الاجتماعية وعلاقاتها بالتحليل النفسي دو البعد الماركسي.

1- فروم والنظرية الماركسية القراءة الجديدة للواقع الانساني المعاصر: في خضم تمفصلات النظرية الماركسية التي فسّرتْ الحياة الانسانية وفق غايات اقتصادية وسياسية كان فروم يبحث دائما عن الحلقة الناقصة في فهم الماركسية، والتي لابد من إعادة البحث في هذه النقطة بالذات، حيث رأى أن الحلقة الناقصة هي غياب الجانب النفسي المحدد لها والمعبر عن جوهر الحياة الانسانية .

"*فلكل شكل من الأشكال الاجتماعية ليس فقط أساسا اقتصاديا وسياسيا خاصا به لكن أيضا أساسا ليبديا قائما بذاته*" وهي التي يسميها بنية الدوافع الليبيدية أو خاصية المجتمع وإن كان قد غلب عليها الطابع النظري، دون أن تكون منجزة في الواقع العملي في بداياتها الأولى، وهي النقطة نفسها التي أراد من خلالها فروم توضيح تشويه الماركسية حيث تم حصرها في بعدها

الاقتصادي فقط دون إعطاء تحليل موضوعي للنظرية الماركسية حيث يقول" *لقد فسروا المادية التاريخية أو الجدلية ليقولوا أن القوة الأساسية المحركة في الإنسان هي مشاعره اتجاه استهلاك المزيد والمزيد، وقد صرحوا أن الغاية من الاشتراكية كانت أن تصبح وسيلة أفضل لتحقيق إنتاج أفضل واستهلاك أفضل للجميع* (اريك فروم، 2016، ص 17)" وهذا غير صحيح لان الهدف الأساسي الذي كان يصبوا إليه ماركس ليس التغيير الاقتصادي فقط بل التغيير الانساني، ومن ثمة تكون فكرة الباعث على التملك هي فكرة برجوازية وليست مفهوما ماركسيا، لأن الطمع في المال هو نتاج ظروف اجتماعية معينة وليست نتاج غريزة ، لذلك كانت غايته تحرير الانسان من اغترابه الكبير الذي سيطر عليه، فالمجتمع الاشتراكي لم يكن هدفا في حد ذاته بل كان وسيلة لتحقيق إنسانية الانسان.

فقد شكل ماركس دورا محوريا في افكار فروم الداعية إلى إرساء نظرية جديدة في فهم الحياة الإنسانية، والبحث في مفهوم الإنسان من جميع الزوايا المُشَكِلةِ لحياته النفسية والاجتماعية وغيرها من الابعاد المعبرة عن انسانيته حيث يقول:" *سيبقى ماركس أهم مصدر لفكري ولإلهامي، لكن من الصعب اليوم الحديث عن ماركس، لأنه ليس هناك مفكر أخر اسيئ فهمه أكثر من ماركس، وخاصة من طرف الذين يسمون أنفسهم ماركسيين يعني أغلبية الشيوعيين، ما يعجبني في ماركس هو فلسفته ورؤيته للاشتراكية التي تعبر في شكلها الدنيوي عن فكرة تحقيق الذات الانسانية"* (اريك فروم، 2016، ص 18) وبالتالي تتضح المعالم الكبرى للنظرية الفرومية التي تقوم على ضرورة التأسيس الفعلي لمجموعة من القيم الانسانية في تحليل مفهوم وبنية الشخص المعاصر وواقعه المعيش هذا العالم الذي أصبح يعيش تناقضا كبيرا على أصعدة متعددة بين جانب مادي يسير بوتيرة متسارعة جدا، وبين جانب معنوي وروحي قيمي يسير ببطيء شديد.

لذلك يرى فروم أن فلسفة ماركس تسلط الضوء على اغتراب الانسان وضياعه وتحوله إلى مجرد شيء من الاشياء في العالم، كما أنها حركة تقف ضد تشويه انسانيته وتحويله إلى ألة،

ومن ثمة الوقوف على التفسير المقدم للوجود الإنساني خلال الثورة الصناعية الغربية ما يعني تحليل النظرية الماركسية في ضوء هذه التحولات الكبرى التي يعرفها العالم الغربي وهنا يقول فروم " *من هذا المنطلق يمكن اعتبار أن فلسفة ماركس تمتد بجدورها إلى التقاليد الفلسفية الإنسانية الغربية، والتي يشكل موضوع الاهتمام بالإنسان ككائن والطرق المؤدية إلى تحقيق طاقاته واقعيا جوهرها الأساسي*" (اريك فروم، 2016، ص 148) فسؤال العودة إلى الانسان وتحليله طغتْ على فلسفة فروم وتحليلاته المختلفة التي تسعى دوما إلى البحث عن قراءة جديدة للتوجه الانساني في مختلف علاقاته، حيث يحضر البعد السيكولوجي دائما في تشخيصه للواقع والوجود الانساني لأنه لا يمكن الوصول إلى نتائج موضوعية دون التطرق إلى جميع الجوانب المشّكلةِ للحياة الانسانية، ومن زوايا مختلفة متعددة. فالمسألة الحقيقية لماركس هي مسألة الوجود الانساني ككائن فردي واقعي يتحدد معنى وجوده من خلال عمله الذي يضمن له تحقيق ذاته في الصيرورة التاريخية.

2- ماركس وتحليل ماهية الوجود الإنساني وفق الرؤية الفرومية: تكشف افكار فروم على حضور عميق للتحليل الماركسي وتوجهاته المختلفة ذات العلاقة المباشرة بمفهوم الإنسان، والتحليلات الاخرى ذات الصلة به والمعبرة دائما عن ماهية الفلسفة الإنسانية التي أراد ماركس تأصيلها في مشروعه الفكري، ومن ثمة يجمعُ فروم بين عمق التحليل النفسي الفرويدي من جهة، وبين التوجه الماركسي وطبيعة العلاقة الكامنة بينهما.

فلطالما كانت الفلسفة الماركسية احتجاج متشرب بالإيمان في الإنسان وبقدرته على تحرير ذاته، وتحقيق طاقاته، أي التركيز على البعد الانساني في تحقيق ذاته وتغيير واقعه الاجتماعي بالأساس، لذلك تبدوا فلسفته مختلفة ذات طابع طوباوي لدى البعض ومن ثمة جعلها ذريعة لرفضها ورفض كل قدرات الانسان وأمله في أن يصير في ما هو عليه حيث يقول: " *ورغم ذلك ستبقى فلسفة ماركس مصدر لرؤية وأمل جديدين، وأنا أعتقد أن هذه الرؤية والأمل الجديدين سيمكناننا من التعالي على الأطر الضيقة للتفكير الميكانيكي الوضعي الذي يسود*

ميدان العلوم الاجتماعية في هذه الأيام، وهذا ضروري إن كان يراد خروج الغرب حيًّا من قرن المحاكمة هذا" (اريك فروم، 2003، ص 12) بمعنى سيطرة التفكير العلمي الوضعي على جميع مناحي الحياة الإنسانية سواء في طابعها المادي أو المعنوي الروحي، في هذا ليس تقليلا من قدرة العلوم الوضعية في الاجابة عن هموم الذات الانسانية وواقعها المعاش، وإنما في تأصيل تراجع دور العلوم الانسانية والاجتماعية في مرافقة التجربة الوجودية الانسانية، وفي التعبير عن أمل الإنسان المفقود في الحقبة المعاصرة، فقد حاول اريك فروم إزالة الغموض المشوهِ للنظرية الماركسية من خلال الوقوف عند الحقائق الجوهرية التي حبلتْ بها فلسفة ماركس.

أ-ماركس بين الحقيقة والتزييف عند اريك فروم: حاول فروم في مؤلفه الانسان عند ماركس وبقية انتاجه الفلسفي توضيح معالم النظرية الماركسية وما تضمنته من مفاهيم متنوعة، مشيرا إلى سوء الفهم الكبير الذي تعرض له، الأمر الذي انعكس سلبا على ما أراد تقديمه في نظرياته ومن ثمة التشويه المجحف في حق مفكر كبير بحجم ماركس، يقول فروم هنا "*إن تصور ماركس للمادية قد تعرض لعملية إساءة فهم جسيمة أكثر من أي مفهوم ماركسي أخر*" (اريك فروم، 1998، ص 10) لأن الفكرة الأساسية التي تم استخلاصها من المادية الماركسية تكمن في أن الهدف المحوري للإنسان يكمن في جانبه المادي، وما يحققهُ من منافع مادية بعيدا عن كل جوانبه الاخرى الروحية وغيرها.

إضافة إلى إنكاره لأهمية الفرد وقدراته، أي النقد الديني للماركسية من حيث كونها اهتمت بالجانب المادي للإنسان معدمةً الجانب الروحي له، ونفس الفكرة المتعلقة بفردوسه الاشتراكي بتعبير فروم، بمعنى فقدان حرية الفرد نتيجة تنازلهم عن حريتهم مقابل المساواة الاشتراكية التي تقودها فئة قليلة من النخبة، وبالتالي يصبح الأفراد في الاشتراكية مجرد الآلات مكتفون ماديا فاقدين للحرية.

يرفض فروم الصورة المزيفة التي فهمها البعض حول ماركس موضحا أن هدف ماركس يتمثل في الانعتاق الروحي للإنسان وتحريره من قيود الحتمية الاقتصادية لإعادة بنائه في كليته الانسانية، ولتمكينه من ايجاد الوحدة والتوافق مع أقرانه البشر ومع الطبيعة. وهذه الأفكار حول الماركسية تحتاج إلى إعادة البحث من جديد في تجليات النظرية الماركسية قصد الوقوف على الفهم الصحيح لها، وهي الفكرة التي أراد فروم توضيحها وشرحها في مختلف مؤلفاته، حيث يقول " *ما يعجبني في ماركس هو فلسفته ورؤيته للاشتراكية التي تعبر في شكلها الدنيوي عن فكرة تحقيق الذات الانسانية* " (اريك فروم، 1998، ص 12)

إن الهدف النهائي لماركس لم يكن التغيير الاقتصادي بل الانساني، وأن فكرة الباعث على التملك هي فكرة برجوازية وليست فكرة ماركسية، فالطمع في المال هو نتاج ظروف اجتماعية معينة لا نتاج غريزة كانت أقرب إلى تلك الظروف، كانت غايته تحرير الإنسان من عرجه من خسارة نفسه، ومن الاغتراب، فلم يكن المجتمع الاشتراكي هدفا بحد ذاته بل وسيلة لتحقيق إنسانية الإنسان غير المنقوصة. وهنا تكمن أصالة ماركس ومشروعه الإنساني الذي كان هدفه الأساسي تحرير الإنسان من سيطرة الطبقة البرجوازية الرأسمالية التي لا تعترف إلا بما يحقق لها أرباحا، ومن ثمة ضرورة فهم الأفكار الماركسية التي قامت عليها حتى يتسنى لنا الوصول إلى حكم موضوعي عليه، دون الاكتفاء بالأفكار التي قدمتْ حولهُ.

أما مسألة موقف ماركس من الدين والتي احتلت مساحة جد واسعة في البنية التأسيسية للمشروع الماركسي، حيث سال الكثير من الحبر حولها انطلاقاً من اعتبار ماركس أن الدين افيون الشعوب وانه يدخل في مجال الخرافات، في حين يؤسس فروم لرأي أخر مخالف، ألا هو اهتمامه بالجانب الروحي للإنسان مؤكدا على ضرورة فتح عالم الروحانيات على مصراعيه نتيجة الأهمية القصوى التي يحتلها في الإنسان المعاصر على وجه الخصوص، بسبب غياب الأسئلة الروحانية في مقابل السيطرة المطلقة للماديات وجانب المتعة والرفاهية بلغة *ليبوفتسكي*، وقد خصص له فروم العديد من مؤلفاته من اهمها البحث في سيكولوجية

الأخلاق، حيث يقول: *"إن الإنسان الذي يحاول أن يعيش دون اعتقاد يصبح عقيما دون أمل وخائفاً في عمق الوجود"* (اريك فروم، 1998، ص 18) دون أن يربط الإيمان أو الاعتقاد بفكرة معينة أو بدينٍ معين بقدر ما يجعل منه فكرة إنسانية مهمة في حدود العلاقات الإنسانية وانفتاح الإنسان على عوالم أخرى جديدة، ويضيف فروم أن الاعتقاد لا يتطلب بالضرورة فكرة المقدس أو الذات المطلقة أو المحرك الذي لا يتحرك بل كل ما تتطلبه تجربة شخصية معاشة روحية فريدة يشعر فيها بالحضور الروحاني الحميم الإنساني المكتمل، هذه التجربة الروحانية تتمظهر عبر العديد من الأشكال الإنسانية كالرسم والموسيقى ومساعدة المحتاجين والمهمشين في المجتمع وغيرها من الحالات المتعددة، مميّزا في ذلك بين ما يسميه بالاعتقاد العقلي والاعتقاد اللاعقلي. فهذا الأخير يتمثل في الخضوع الأعمى اللاوعي واللاعقلاني لشخص أو لشيء، أما النوع الأول فيبنىَ على الإيمان القوي والاقتناع بفكرة الايمان تجاه ما يؤمن به والتي يعبر عنها بالثقة المنطقية في كفاءة الشخص أو الشيء موضوع الإيمان، فالشهادة في الإسلام تعني هذا الاقتناع الكامل والثقة التامة في أنه لا وجود لأي إله ما عدا الله وحده، ومن بعدها الثقة بالحدث التاريخي للرسول صلى الله عليه وسلم وبكفاءته على حمل الرسالة، وإن لم يتحقق هذا الوثوق النفسي والعقلي للشخص يبقى ايمانه لا عقليا وهو أحط أنواع الإيمان وقد يقوده إلى ضده.

وعلى هذا الأساس يحاول **اريك فروم** دائما في كل مشروعاته الفكرية والفلسفية التأكيد على ذلك البعد العميق الكامن في الذات الإنسانية والذي لا يمكن الكشف عنه إلا من خلال معرفة الأبعاد الجوهرية المكونة للشخص الإنساني وربما يكون السبب في عمق التحليل الفرومي حول مفهوم الإنسان والقضايا التي تطرحها النزعة الإنسانية في مختلف أفكاره، حيث يقول *" لكي يعيش الإنسان يحتاج إلى الاعتقاد ومن أجل العيش في العالم المعاصر والمستقبل الذي يتطور فيه فإن كل إنسان سيكون في حاجة للإيمان العقلي، ويمكن للإيمان العقلي الضروري أن يتطور في النظام المجتمعي حيث تتحقق المثل الديمقراطية أكثر فأكثر"* (اريك

فروم، 1998، ص 19)، فقد حاول **فروم** توضيح هذه الفكرة جيدا حتى يزول كل غموض حول موقفه.

3- المادية الماركسية بين الأصالة والتزييف فروم قارئاً للنظرية الماركسية: مما لا شك فيه أن مصطلح المادية قد تناوله الفلاسفة من القديم حيث ارتبط بالعديد من التفسيرات التي حاولت دائما الفصل بين الجانب المادي للإنسان ووجوده وبين جانبه الروحي والمثالي وغيرها من التأويلات، لكن ما يهمنا هنا التصور الذي قدمه ماركس حول المادية والاختلاف حول الفلاسفة في فهمه وتفسيره، ومن ثمة فقد عارضت المادية الماركسية التصورات الخاصة بعلماء الطبيعة التي فسرت جميع مجالات الحياة الإنسانية من زاوية علمية، بمعنى كل شيء يقبل التكميم والدراسة العلمية حتى وإن تعلق الأمر بالجانب الوجداني والشعوري في النفس الإنسانية، وهي الفكرة التي رفضها ماركس، فقد حارب هذا النوع من المادية البرجوازية أو المادية الميكانيكية كونها تستبعد التاريخ وتطوره.

يشير **فروم** أن ماركس في الحقيقة لم يستخدم أبدا مصطلح المادية التاريخية أو المادية الجدلية بل تكلم عن منهجه الديالكتيكي وعن الأساس المادي الذي يقوم عليه، والمعبر عن الشروط العامة للحياة البشرية، ومن ثمة يكون مضمونه الدراسة الواقعية للحياة الانسانية والاجتماعية ودورها في تغير الجانب النفسي والشعوري للإنسان مخالفا بذلك التصورات السائدة لدى المفكرين الألمان حيث يقول: " *إن التعارض المباشر مع الفلسفة الألمانية التي تنطلق من السماء نزولا إلى الأرض، هو أننا هنا نصعد من الأرض باتجاه السماء، اي أننا لا ننطلق من ما يتخيله ويتصوره البشر، أو من البشر كموضوع مرئي، مفكر به، متخيل ومتصور، من أجل الوصول إلى الإنسان في لحمه، إننا ننطلق من البشر الفعليين الواقعيين، لأننا على أساس دراسة تقدم حياتهم الواقعية، سنظهر تطور الأصداء والانعكاسات الأيديولوجية لهذا التقدم*" (اريك فروم، 1998، ص 19) وفي هذا تجلي للسمات الأساسية المميزة للمادية الماركسية بعيدا عن التأويلات المزيفة التي غيبت جوهر التصور الماركسي

حولها، حيث حدد من خلالها نقطة الانطلاق بالنسبة للمادية ومحور اهتمامها أي الذات الإنسانية وواقعها المعاش، و من ثمة نقده للجدلية التاريخية عند هيجل لأنها تتأسس على مفاهيم تتجاوز الواقع الإنساني إلى جانب متعالي جعله يخرج عن إطار التاريخ الإنساني قائلا: "*إن فلسفة هيجل للتاريخ ليست أكثر من التعبير الفلسفي عن الدوغما الألمانية – المسيحية حول التعارض بين الروح والمادة وبين الله والعالم، إن فلسفة التاريخ عند هيجل تفترض مقدما وجود روح مطلقة أو مجردة، والتي تتطور بطريقة لا يكون فيها الإنسان سوى مجرد كتلة تحمل هذه الروح سواء بشكل واع أو لا واع، كما يفترض هيجل أن التاريخ الخفي التأملي يسبق التاريخ التجريبي، بهذا فإن تاريخ الجنس البشري يتحول إلى تاريخ الروح المجردة للجنس البشري التي تتعالى على الإنسان الواقعي*" (اريك فروم، 2003، ص 12) وبالتالي يكون التصور الهيجلي للتاريخ يحمل في طياته جانب التعالي عن الواقع باعتباره يتأسس على فكرة الصراع بين الروح والمادة، والذي ينتصر في نهاية المطاف للروح المتعالية على الإنسان والواقع في الأن ذاته، ومن ثمة يكون بعيداً حسب ماركس عن الإلمام بالحياة الواقعية الإنسانية.

فالمنهج التاريخي الماركسي يقوم بالدرجة الأولى على فهم الواقع الإنساني في بعديه المادي والروحي، بمعنى البحث في العلاقة الفاعلة التي تميّز الإنسان عن غيره والتي تجعله يدرك ويعي حدود العلاقات التي يقوم بها، هذه العلاقات التي تحدد وجوده وكينونته حيث يقول:" *إن الطريقة التي يعبّر بها الأفراد عن حياتهم هي التي تحددُ كينونتهم، ما يتطابق إذا مع انتاجهم، مع ما ينتجون ومع الكيفية التي ينتجون من خلالها، بالتالي فإن طبيعة الأفراد تعتمد على الشروط المادية التي تحددُ انتاجهم*" (اريك فروم،، 2003، ص 148) لهذا السبب بالضبط يمكن اعتبار مادية ماركس متميزة عن الماديات المعاصرة الأخرى كونها ليست مادية أو مثالية فقط، بل تركيبٌ مؤلف من مذهب إنساني ومذهب طبيعي وهي نقطة الافتراق مع الفلسفات الأخرى.

أما عن سوء الفهم الذي تعرضت له المادية التاريخية حسب فروم فيرتبط بالتأويل القائل أن المادية تعبير عن الجانب البسيكولوجي في الإنسان المؤسس على الرغبة وحب الامتلاك، وفي هذا ابتعاد كبير عن الصحة، لأن ما أراده ماركس يختلف عن هذا التأويل، فالمادية ليست نظرية بسيكولوجية على الاطلاق مادام أنها تبين أن الطريقة التي ينتج الإنسان من خلالها هي التي تحدد تفكيره ورغباته وليست رغبته الرئيسية نحو الكسب الأقصى، فعلم الاقتصاد لا يهتم بالجانب البسيكولوجي بل بأسلوب الإنتاج وبالعامل الاجتماعي- الاقتصادي الموضوعي. حيث يقول "*إن شروطا اقتصادية محددة كتلك الموجودة في الرأسمالية تخلق كحافز رئيسي الرغبة في المال والملكية، بينما نجد أن أوضاعا اقتصادية أخرى تولد رغبات معاكسة تماما كالزهد واحتقار الثروة الدنيوية، كما هو ملاحظ في كثير من الثقافات الشرقية وفي المراحل الأولى لنشوء الرأسمالية، طبقا لماركس فإن شغف المال والملكية هو تماما مشروطٌ اقتصادياً بالشكل ذاته المشروطة فيه الأهواء المعاكسة*" (اريك فروم، 2003، ص 12) وفي هذا توضيح جلي لجوهر الماركسية والأفكار الأساسية التي أراد ماركس توضيحها بعيدا عن التفسيرات العديدة التي سارت كلها في اتجاه واحد فقط وهو ربطها بجانب الكسب المادي وتحقيق الملكية دون الحديث عن العلاقة الفاعلة بين الجانب الاجتماعي والاقتصادي والواقع الإنساني.

فالتفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ ليس هو الدافع الرئيسي الأكبر في الإنسان ومن ثمة يطلق عليه فروم التفسير الأنثروبولوجي للتاريخ، إنه فهم مرتكز على قاعدة أن الإنسان هو مبدع وفاعل تاريخه" (اريك فروم، 1998، ص 28) وفي هذا يتميز ماركس عن غيره من الفلاسفة من حيث أنه يركزُ على مفهوم الإنسان باعتباره الفاعل الرئيسي في التاريخ الإنساني، فهو ينطلق من الإنسان وحده الذي يملك المقدرة على صنع تاريخه، ومن ثمة يصل ماركس إلى فكرته الاساسية ألا وهي أن ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعي البشر، وهذه الفكرة تبدو صحيحة تتماشى مع واقع الإنسان المتغير باستمرار.

هذا الواقع الاجتماعي المتغير هو إشارة إلى الصراع القائم بين الإنسان والطبيعة، فعند مرحلة محددة من التاريخ سيطورُ الإنسان المصادر الإنتاجية للطبيعة إلى تلك الدرجة التي يمكن من خلالها حل التناقض بين الإنسان والطبيعة في النهاية، من هذه النقطة فإن ما قبل التاريخ الإنساني سيصل إلى خاتمته وسيبدأ التاريخ الإنساني في الواقع.

لقد حاول فروم تقديم صورة جديدة تربط بين مجال البحث الاجتماعي والدراسات النفسية داخل المجتمع لأن التحولات الاجتماعية المختلفة للفرد ماهي في النهاية إلا مجرد انعكاس للحالات النفسية التي يعيشها الإنسان، هذه النقطة أشار إليها في مؤلفاته التي نشرت بين سنة 1929 و1932 حيث يقول : "*إن تطبيق التحليل النفسي في السوسيولوجيا لابد أن يحترسَ من الوقوع في خطأ تقديم أجوبة في الأماكن التي تكون فيها الوقائع الاقتصادية والتقنية والسياسية مؤهلة لتقديم أجوبة كافية للإشكالات السوسيولوجية، من جهة أخرى لابد للمحلل النفسي أن ينبهَ إلى أن المجتمع كموضوع للسوسيولوجيا يتكون في الحقيقة من أناس منفردين، وبأن سلوك وفكر وشعور هؤلاء الناس، وليس المجتمع المجرد هو موضوع البحث السوسيولوجي*"(اريك فروم، 2016، ص، 16).

الخاتمة:

إن فكرة الوعي الاجتماعي عند ماركس تشير إلى الادراك الواعي الذي يمكن الانسان في النهاية من معرفة كل متطلباته وحاجاته الانسانية الحقيقية حيث يقول"*إننا لا يمكن أن نكون مدركين لحاجاتنا الانسانية الحقيقية الواقعية، إلا إذا تحول وعينا الزائف إلى وعي حقيقي، أي عندما نصبح مدركين للحقيقة بدلا من تحريفها بواسطة التسويغات والتخيلات* (اريك فروم، 1998، صفحة 35)" *فقد كان* ماركس واعيًا بقوة وتأثير الأفكار على التطور الانساني والدور المهم الذي تلعبه في الواقع الوجودي للإنسان، لكنه ميّزَ لنَّا فيها بين ما هو موجود حقيقة في الواقع وقابل للتجسد الفعلي وبين الافكار المتعالية على الواقع كما هو لدى هيجل.

لم ينسى ماركس دور الظروف في صنع الانسان، والدور العكسي الذي يلعبه في صنع الظروف وتغييرها، فهي التي تقود إلى تقسيم المجتمع إلى جزأين يكون أحدهما أرقى من الأخر، ومن ثمة العلاقة التبادلية القائمة بينهما التي تتطلب دائما فهما جيدا حتى يتسنى للإنسان معرفة أهميته الحقيقية في صنع التغيير الاجتماعي والاقتصادي وغيرها، فالقوة في نظره لا تولد شيئا جديدا إذا لم تصاحبها مقدمات في عملية التطور السياسي والاجتماعي للمجتمع، فلا يمكنها أبدا ايجاد شيء جديد واقعيا، وبالتالي فهو لا يؤمن بالقدرة الخلاقة للقوة في صنع التغيير وبناء مجتمع جديد، وعليه لا تكتسب القوة في النهاية سوى أهمية مؤقتة وليست عنصر دائم في عملية تحويل المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع:

1- اريك فروم، حب الحياة، ترجمة حميد لشهب تقديم راينر فونك، جداول للنشر والتوزيع، 2016.

2- اريك فروم، الانسان المستلب، ترجمة حميد لشهب، نداكوم للطباعة والنشر،2003

3- اريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، 1998.

4- جيمس جوردن فينلسون، يورجن هابرماس، ترجمة أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2015.

5- اريك فروم، حب الحياة، ترجمة حميد لشهب تقديم راينر فونك، جداول للنشر والتوزيع، 2016.